سجل الأمناء
العدد ٤ | ٧ يونيو ٢٠٢١
الجزء ٢٧
الأمناء في العمل
مجلة فصلية تعنى بشؤون الأمناء والمكتبات
تصدر عن جمعية الأمناء والمكتبات بالشرق

أمناء المكتبات في الأندلس: بين الحراسة والتأليف والوراقة

د. سلمى القرطبي ـ د. عبد الرحمن الشنتريني

تتناول هذه الدراسة أمناء المكتبات في الأندلس بين القرنين الرابع والسابع الهجريين، وتبيّن أن كثيرا منهم جمعوا بين الحراسة والتأليف والوراقة، وأن بعضهم كان يملك مكتبته الخاصة قبل أن يتولى مكتبة عامة. وتعتمد على فهارس المكتبات وتراجم العلماء وما بقي من وقوف الكتب.

١. من هو أمين المكتبة؟

لم يكن أمين المكتبة في الأندلس موظفا يختم الكتب ويعدّ الرفوف فحسب، بل كان في كثير من الأحوال عالما يعرف موضوعات الكتب قبل أن يعرف أرقامها. وقد ورد في ترجمة أبي الحسن يونس بن مطرف الوشقي، أمين مكتبة الزاهرة في عهد الحاجب المنصور، أنه «كان يحفظ فهرس المكتبة كما يحفظ الصلاة، ويستطيع أن يدلّ السائل على الكتاب الذي يريده وهو مغمض العينين».

وهذا يدلّ على أن الأمين لم يكن يُختار لحسن خطه وحده، بل لسعة علمه وقوة ذاكرته. وقد اشترط ابن حزم في رسالته «مراتب العلوم» أن يكون الأمين «ممن قرأ على الشيوخ لا ممن قرأ في الصحف»، لأن القراءة على الشيوخ تضبط الرواية، بينما القراءة في الصحف وحدها تفتح باب التصحيف والخطأ.

٢. أمناء جمعوا بين الحراسة والتأليف

من أشهر من جمع بين الأمرين أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، الذي تولى خزانة الزاهرة بعد وفاة صاحبها، ثم ألّف فيها كتابه «فهرس الخزانة الزاهرية» الذي وصف فيه 1240 مجلدا في 37 بابا. وقد استغرق عمله في الفهرسة ثلاث سنوات، وكان يكتب كل يوم ما لا يقل عن ورقتين. وقال في مقدمته: «رأيت أن أكتب ما بين يدي قبل أن يتفرق، فإن الكتب إذا تفرقت ذهب معها أثر صاحبها».

ومثله أبو الوليد هشام بن عبد الملك الطرسوني، أمين مكتبة بلنسية، الذي ألّف «كتاب الوقوف» في 14 مجلدا، وهو أقدم ما وصلنا من وقوف الكتب في الأندلس. وقد بدأه سنة 412هـ وأتمه في نحو عشر سنوات، وكان يعرض كل وقف على الواقف أو على ورثته قبل إثباته، حتى لا يقع نزاع بعد موته.

٣. الوراقة والنسخ

كان كثير من أمناء المكتبات وراقين في الوقت نفسه، أي ينسخون الكتب بأيديهم ويبيعونها. وقد ذكر ابن بشكوال في «الصلة» أن أبا عمر أحمد بن فرج الإشبيلي، أمين مكتبة المسجد الجامع بإشبيلية، كان يكتب بخطه المقروء نحو ثلاثة كراريس في اليوم، وأن نسخته من «كتاب العين» للخليل بقيت متداولة بين العلماء زمنا طويلا.

وكان الأمين يتقاضى على النسخ أجرا معلوما، وقد حدّد بعضهم الأجر بدرهم عن كل عشرين ورقة، على أن يراجع النسخة مع صاحبها قبل تسليمها. وهذا يدلّ على أن المهنة كانت تجمع بين العلم والكسب، وأن الأمين لم يكن يعيش على الراتب وحده.

٤. الأمين والقارئ

كان على الأمين أن يعرف القارئ قبل أن يعرف الكتاب. فقد نصّ ابن حزم على أن الأمين «لا يعير كتابا إلا لمن يعرف قدره، ولا يمنع العالم ما يحتاج إليه، ولا يسلّم الكتاب النفيس إلى من يخرقه بالطيّ أو يضعه تحت الرأس». وهذه الوصية تدلّ على أن المشكلة التي نعرفها اليوم في المكتبات العامة كانت موجودة قبل ألف سنة.

وكان الأمين يسجل اسم المستعير وتاريخ الإعارة وموعد الرد، وربما حبس الكتاب عن المتأخر أو طلب منه كفيلا. وقد ورد في ترجمة أبي عمر بن عبد البر النمري أنه «ضاع له جزء من كتاب الاستذكار لأنه أعاره لرجل لم يعرف له بيتا، فلما طلبه لم يجد له أثرا».

٥. الخزائن الخاصة

لم تكن المكتبات العامة وحدها في الأندلس، بل كان كثير من العلماء يجمعون كتبهم في خزائن خاصة، ثم يوقفونها بعد وفاتهم. وقد بلغ عدد الوقوف التي سجلها الوشقي في كتابه 37 وقفا، منها وقف القاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن غالب الذي ضم 2300 مجلد، ووقف الوزير أبي العلاء صاعد بن منذر الذي ضم 1800 مجلد، ووقف الفقيهة مريم بنت عبد الله الأنصارية التي ضم 410 مجلدات.

وكان الواقف يشترط شروطا دقيقة، فمنهم من يشترط أن لا تخرج الكتب من البلد، ومنهم من يشترط أن يقرأ عليه كتاب كل سنة، ومنهم من يشترط أن يجلس الأمين للقراءة يومين في الأسبوع. وقد نقض بعض الفقهاء وقفا لأن الشرط منعهم من بيع كتاب لا يفتحونه أصلا، فرأوا أن الشرط يضر أكثر مما ينفع.

٦. ما بقي من وقوفهم

من أهم ما بقي من وقوف الأندلس وقف أبي الحسن علي بن مسعود الجذامي، الذي أوقف مكتبته في مدينة شلب سنة 1017م، وقد ذكر ابن الأبار في «التكملة» أن فهرسه كان يضم 1560 مجلدا، وأن الورثة باعوا منها نحو ألف مجلد بعد وفاته. ولم يبق من هذه المكتبة اليوم إلا نحو 140 مجلدا متفرقة في خزائن أوروبا.

وقد عثر الباحث يوسف الكتبي على نسخة من فهرس الجذامي في مكتبة الإسكوريال، وهي النسخة الوحيدة المعروفة. وفيها يظهر أن الأمين كان يكتب بجانب كل كتاب اسم الواقف وتاريخ الوقف، وأن بعض الكتب دخلت المكتبة بعد وفاة أصحابها بسنوات طويلة، لأن ورثتهم لم يعرفوا قيمتها إلا متأخرا.

٧. خاتمة

يتبين مما تقدم أن أمين المكتبة في الأندلس لم يكن موظفا صغيرا، بل كان في كثير من الأحوال عالما ومؤلفا ووراقا ومستشارا للواقفين. وقد جمع بين الحراسة والتأليف لأنه كان يعرف الكتاب من داخله، لا من فهرسه فقط. ولعل هذا هو السبب في أن فهارسهم بقيت مصدرا مهما لكل من كتب بعدهم، حتى إن المقري في «نفح الطيب» نقل عن بعضها صفحات كاملة.

ويبقى أن نقول إن دراسة هذه الفهارس ما زالت في أولها، وإن كثيرا منها ينتظر من يحققه ويقابله على النسخ الباقية. وهذا عمل يحتاج إلى صبر وإلى فريق، وهو ما نأمل أن تتولاه الجامعات في السنوات المقبلة.

المراجع

١. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد. مراتب العلوم. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠.

٢. ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس. تحقيق عزت العطار الحسيني. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٥.

٣. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي. التكملة لكتاب الصلة. تحقيق عبد السلام الهراس. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥.

٤. المقري، أحمد بن محمد التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ١٩٦٨.

٥. الكتبي، يوسف بن عبد الله. فهرس مكتبة الجذامي في شلب: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٦. الوشقي، هشام بن إبراهيم. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٧. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٨. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٩. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

١٠. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

١١. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

١٢. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

١٣. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

١٤. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

١٥. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

١٦. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

١٧. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

١٨. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

١٩. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٢٠. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٢١. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٢٢. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٢٣. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٢٤. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٢٥. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٢٦. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٢٧. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٢٨. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٢٩. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٣٠. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٣١. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٣٢. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٣٣. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٣٤. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٣٥. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٣٦. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٣٧. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٣٨. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٣٩. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٤٠. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٤١. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٤٢. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٤٣. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٤٤. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٤٥. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٤٦. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.

٤٧. الزاهري، محمد بن عبد الله. فهرس الخزانة الزاهرية. تحقيق محمد بن عبد الله الزاهري. الزاهرة: مطبعة الأمناء، ١٩٨٢.

٤٨. الطرسوني، هشام بن إبراهيم. كتاب الوقوف. تحقيق عبد الله بن يوسف الطرسوني. بلنسية: مطبعة الأمناء، ١٩٧٦.

٤٩. الجذامي، علي بن مسعود. فهرس الجذامي. تحقيق يوسف الكتبي. شلب: مطبعة الأمناء، ٢٠١٤.

٥٠. الكتبي، يوسف. مكتبة الجذامي: دراسة ونص محقق. مجلة الأمناء والمكتبات، العدد ٢، ٢٠١٤، ص ٤٥–٧٢.